تماثيل الزينة وتوظيفها في الصناعات اليدوية في العصر العباسي

الدكتور صلاح حسين العبيدي
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

لم تلعب التماثيل الآدمية والحيوانية دورا كبيرا في الفن العربي الاسلامي مثلما لعبته سائر الفنون الاخرى بسبب انصراف الفنانين والصناع عن تصوير الكائنات الحية نتيجة تحريم فن النحت في الاسلام . ومع ذلك نجد ان الفنان في كثير من الاحيان يلجأ بطريقة واخرى الى صنع نماذج من التماثيل في غاية الدقة والروعة ويتفنن في طريقة صياغتها، فبدأ يستعين بصور الانسان والحيوان ، فيتخذ من الانسان والحيوان تماثيل متنوعة الاشكال أو يستعين بأجزاء من جسم الانسان أو الحيوان للغرض المذكور .

وأول ما يستأثر بالاهتمام لاول وهلة ان التماثيل الاسلامية المجسمة قليلة ، الا انها تمتاز بتنوعها ومستواها الرفيع من حيث الصناعة والدقة والاتقان .

واذا كان الجانب الاكبر من ثمرات الفن العربي الاسلامي يتالف من تلك التماثيل الصغيرة التي أبدع الفنانون في صناعتها فان هذه التماثيل تذكرنا بأن الصانع العربي المسلم كان قادرا على أن ينتج أعمالا فنية على مستوى أضخم .

وهكذا بدأت تظهر بين آونة واخرى تماثيل يمكن تصنيفها بوجه عام الى مجموعتين ، الاولى تماثيل تجمع بين الزينة والوظيفة ، والمجموعة الثانية تماثيل صنعت لاغراض الزينة والجمال .

ولكن الذي يؤسف له ان هذا الموضوع لم يحظ من عناية الباحثين في الاثار العربيـة الاسلامية بالنصيب الذي حظيت به الموضوعات الاخرى فالكتب الاثارية لا تفرد كتابا واحدا يقتصر على دراسة الموضوع ، وليس هناك فيما أعلم كتاب لباحثين محدثين يتناول هذا الموضوع ، وان كانت هناك اشارات متفرقة هنا وهناك عن هـذا النوع من التماثيل ولكن ليس فيها الا القليل النادر ولا يتناول أبعاده كلها أو يمس زواياه جميعا ·

لذلك كان لابد من توجيـه العناية لدراسة هـذا الجانب المهم مـن تراث الحضارة العربيـــة الاسلامية لبيـــان دور الفنـان العربي المسلم في هـذا المجال ·

وقد اخترت هذه المرة الكلام عـن المجموعة الاولى من هذه التماثيل في العصر العباسي لانه من أزهى عصور الحضارة الذي ازدهر فيـه هذا الفن مؤملا أن اتناول المجموعة الثانية في بحث قادم ·

والملاحظ على هـذه التماثيل انهـا اختلفت في أغراضها وأشكالها ، كما يلاحظ عليها اختلاف موادها الصناعية المعمول منها ، فقـد استخدم الزجاج والخزف والعاج في عملها ، كما دخلت المعادن على اختلاف أنواعها بين نفيسة ورخيصة في عمل مثل تلك التماثيل ·

اما التماثيل المصنوعة مـن الزجاج فقـــد ارتبطت بالدرجـة الاولى بصناعة العطـور ·· ومن المعروف أن استخدام العطـور كان شـائعا في المجتمع العربي الاسلامي ، الامر الذي دعا الى التفكير في تنويع العطور، كما أدى الى البحث عن وسائل كفيلة بحفظها ورواجها ، وقد انعكس ذلك على الصناعة والفنون ، فكان لابد من العناية بأدواته التي تحمل الطيوب·

وأزاء ذلك فقـد نشطت مصانع الزجاج فـي مختلف أنحـــاء العالم الاسلامي لتلبية حاجـة مصانع العطور مـن الآنية ·· وقـد حاول رجال الصناعة فيهـا أن يشكلوا نماذج منها على هيئـة حيوانات مثـل الجمل والاسد والغزال والاسماك أو طيور مثل الديك والبطة، وآنية العطور ذات

التماثيل المجسمة التي وصلت الينا من العصر العباسي كثيرة ومتنوعة ، الا اننا سنكتفي بالاشارة الى نماذج من تلك القطع ليطلع القاريء على الصورة التي كانت عليها تلك الآنية ٠

ففي متحف برلين قنينة من الزجاج صغيرة الحجم مركبة فوق حامل تصور تمثالا لحيوان والقنينة خالية من الزخرفة ، ولكن الخيوط المتعرجة المضافة الى بدنه تبدو كأنها تضمه الى الحيوان المذكور(١) ٠

ومن الانواع الاخرى لآنية العطور كونها على هيئة أسماك أو تكون على هيئة طيور ، ويحتفظ المتحف المذكور بنماذج لهذا النوع من الآنية(٢) ٠

ووصل الينا نوع من آنية العطور ذات التماثيل المجسمة تغاير الاشكال التي رأيناها ، منها نوع يوضع فوق حامل صغير أو يثبت في حامل من الزجاج على هيئة حيوان ، ويحفظ على أرفف ٠٠ ومن بين الامثلة التي وصلت الينا لهذا النوع من التماثيل قنينة عطر من الزجاج بحامل محفوظ في المتحف على هيئة حيوان يبدو كأنه جمل(٣) ٠

والى جانب هذا النوع من التماثيل ، فقد وصل الينا نوع آخر منها وهي عبارة عن قارورة للكحل مصنوعة من البلور الصخري شكل جسمها على هيئة طائر ، وقد جعل الفنان حزوزا في الجناحين يمثل بها شكل ريش الطائر ورجلاه محورتان بشكل قاعدة مستديرة يجلس عليها التمثال(٤) ٠

ولم تقتصر التماثيل الزجاجية على الاشكال التي تكلمنا عنها وانما ظهرت بشكل اخر ، كأن يكون التمثال جزءا من آنية طيب أو كحل ، وبين أيدينا مثال لهذا النوع من التماثيل منها قطعة من البلور الصخري معروضة في احدى قاعات متحف الفن الاسلامي بالقاهرة وهي تمثل غطاء أو سدادا لقارورة على هيئة رأس حيوان أظنه أسدا أو كلبا(٥) ٠

وقد تتخذ التماثيل في التحف الزجاجية شكلا اخر ، فقد تكون

مقبضا ، كما في الاناء المصنوع من الزجاج المحفوظ في المتحف الذي جئنا على ذكره قبل قليل ، والاناء المذكور له مقبض على هيئة حيوان صغير يشبه الكلب أو الاسد وذيل الحيوان مثنى على ظهره ويتصل بالرقبة ·

وكما استهوت التماثيل المجسمة صناع الزجاج ، فقد استهواها ايضا صناع الخزف ·· فقد كان لهؤلاء الصناع نشاط كبير في انتاج التماثيل المجسمة وبأشكال مختلفة ·

ففي متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، ابريق مؤرخ من سنة ٥٦٢هـ ١١٦٧م ، تنتهي رقبة هذا الابريق بتمثال على هيئة رأس ديك(٦) (شكل ١) ·

وقد تتخذ تماثيل الحيوانات على شكل مقابض ، كما يظهر لنا ذلك في اناء خزفي محفوظ هو الاخر في المتحف المذكور حيث جعل الفنان للاناء مقبضين يمثلان حيوانا أقرب ما يكون الى النمر أو الاسد ·

وفي مجموعة ماتوسيان بالقاهرة ابريق من الخزف ذي البريق المعدني على هيئة تيس ·· قرونه متصلة فوق الرأس وذيله ينتهي على هيئة رأس حيوان لا تظهر ملامحه(٧) (شكل ٢) ·

على ان صنع التماثيل الخزفية لم تقتصر على الانواع التي تقدم ذكرها ، بل امتدت لتشمل وسائل الاضاءة مثل المسارج ·· ففي المتحف الوطني بدمشق ، مجموعة من هذه السرج ، نذكر منها سراج على شكل حمامة(٨) ، أو تتخذ السرج على شكل حيوانات مثل السراج الذي يحتفظ به المتحف المذكور، وهو على شكل كبش(٩)· وسرج اخر على هيئة جمل(١٠) ·

ولم يقتصر عمل التماثيل الخزفية على الحيوانات المتقدمة ، بل اتخذوا من الخروف نموذجا لها · ففي المتحف سالف الذكر ، سراج على شكل خروف ، والسراج مزين برسوم غزلان زرقاء اللون على أرضية ذات لون زبدي(١١) ·

أما التماثيل المجسمة المصنوعة من المعدن ، فهي كثيرة تتميز بتنوع أشكالها تنوعا ملحوظا يشهد بالذوق الرفيع لما فيها من جمال وصدق في التعبير .. فقد حاول رجال الصناعة أن يشكلوا من هذه المادة أدوات على هيئة تماثيل على شكل حيوانات وطيور أو تكون جزءا من تلك الادوات ، وتأتي المبخرة في مقدمة تلك الادوات وهي تصنع عادة من النحاس والبرونز لكونه أكثر ملائمة في تحمل النار ، ثم انه يمكن جعله في أشكال تتناسب وأذواق الناس .. ولا يتسع المجال هنا لكي نستعرض هذه التحف جميعا ولكننا سنختار أمثلة منها ، بعضها على شكل حيوانات مثل الاسد والغزال والطيور مثل الديك والبطة ، ومن أمثلة المباخر التي تنسب الى العصر العباسي مبخرة محفوظة في متحف المتروبوليتان على هيئة أسد واقف وقد زينت بعض أجزائه بزخارف مفرغة على شكل اشرطة مجدولة ، وقد توخى صانع هذه المبخرة من هذه الزخارف السماح للروائح الطيبة من المرور عبر الاجواء المفرغة الى الخارج(١٢) (شكل ٣) .

مبخرة اخرى مصنوعة من النحاس على شكل بطة محفوظة في متحف الهرمتاج بلينينغراد بالاتحاد السوفيتي ، وللبطة ذيل يشبه رأس طير وتزين جناحيها ومؤخرتها زخارف ، نفذت بطريقة النقش والحفر(١٣) (شكل ٤) .

وفي متحف برلين مبخرة اخرى على هيئة أوزة لها مقبض من الاعلى تزين سطحها رسوم محفورة مختلفة نباتية وحيوانية ، تميز منها رسوم الارانب ، كما يلاحظ على الجناحين رسوم على هيئة قشور السمك(١٤) .

والى جانب ما تقدم فقد اتخذ الصانع في بعض الاحيان التماثيل المجسمة لتكون جزءا من آنية ، كما يلاحظ ذلك في مبخرة من البرونز من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) محفوظة في متحف برلين ، وهي على هيئة اسطوانية وعلى قمة المبخرة تمثال صغير لطائر

ذي وجه آدمي يرتكز بدوره على تمثال صغير على شكل حيوان(١٥)

على ان التماثيل المصنوعة من المعدن لم تقتصر على النماذج المتقدمة بل شمل أدوات المياه أيضا ٠٠ ففي متحف دالم ببرلين الغربية تمثال من البرونز يمثل رأس نافورة في هيئة أسد صغير وقد اكتزت عضلاته وباتت قوائمه بلا تفاصيل كتلة واحدة وله ذيل طويل مثنى الى الامام منته بخصلة شعر مدبب الطرف ويزين بدن الاسد زخارف نباتية وأشكال هندسية لوزية الشكل(١٦) ٠

ومن التحف المعدنية التي زينت بالتماثيل هي التحف الخاصة بوسائل الاضاءة وأهمها المسارج والشمعدانات ، فقد كانت هي الاخرى موضع اهتمام الفنانين والصناع ، لذا نراهم يجملونها ويزينونها بتماثيل الحيوانات والطيور ، ومن أمثلتها شمعدان مصنوع من النحاس محفوظ في متحف الهرمتاج بلينينغراد بالاتحاد السوفيتي يعود تاريخه الى القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ويمتاز هذا الشمعدان بالاضافة الى ما يزينه من زخارف فان الشماعة أو رقبة الشمعدان تلتوي ثلاث مرات ثم تتفرع الى فرعين ينتهي كل منهما على هيئة فك حيوان خرافي(١٧) ٠

وفي متحف الفن الاسلامي بالقاهرة شمعدان من البرونز قوام الزخرفة في هذا الشمعدان عبارة عن مجموعة من الطيور الصغيرة تستقر فوق محيط البدن(١٨) (شكل ٥) ٠

والوسيلة الثانية من وسائل الاضاءة التي زينت بتماثيل الطيور هي المسارج ، ولدينا نماذج منها ، نذكر على سبيل المثال مسرجة من البرونز يتوج مقبضها تمثال لطائر صغير (شكل ٦) ٠

على ان صنع التماثيل المتخذة من المعادن لم تقتصر على الانواع التي تقدم ذكرها ، بل امتدت لتشمل أيضا مطارق الابواب ٠٠ ففي متحف

برلين مطرقة باب من البرونز من صناعة العراق في القرن السادس الهجري (الثالث عشر الميلادي) وتتألف هذه المطرقة من شكل تنينين تشابكت أيديهما وينتهي ذيل كل منهما على هيئة رأس طائر بين رقبتهما رسم رأس حيوان(١٩) (شكل ٧) ٠

أما قناني حمل الماء فقد كانت هي الاخرى لها نصيب من التماثيل ، وقد وصلت الينا مجموعة منها ، الا اننا سنكتفي بالاشارة الى نموذج محفوظ في المتحف البريطاني بلندن وهو عبارة عن قنينة من البرونز المكفت بالفضة يعود تاريخها الى القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) والتماثيل المجسمة في هذه القنينة تمثل الايل ، وقد اتخذ الصانع من هذا الحيوان ليعمل منه مقبضين على جانبي هذه القنينة في أعلى البدن(٢٠) (شكل ٨) ٠

وقبل أن نغادر هذا النوع من التماثيل ، احب ان اشير الى ان هذا النوع من التحف التي تمثل مباخر أو آنية لحمل الماء على هيئة حيوانات وطيور قد امتد تاثيرها الى اوربا ويطلق الاوربيون على الاواني المائية ذات الاشكال الحيوانية اسم (اكوامانيل) وكانت تستعمل لصب الماء ٠ وقد وصلت الينا نماذج تحتفظ بها المتاحف الاوربية ولا يمكن الشك في ان هذه القطع قد صنعت على نماذج عربية اسلامية لانها وجدت في الشرق الاسلامي قبل أن توجد في اوربا ، وكان لها في اوربا نفس السمات الوظيفية الشرقية كوجود انابيب لدخول الماء وخروجه ووجود مقابض مشكلة في هيئة حيوانات أو طيور(٢١) ٠

ولم ينسى الفنانون والصناع أدوات التجميل التي كانت تستخدم في الحمامات لعمل نماذج منها على شكل تماثيل ، فقد كانت هي الاخرى لها حصة من نشاط هؤلاء الفنانين ٠٠ ففي متحف الفن الاسلامي بالقاهرة مقبض من النحاس لحجر الحمام بصورة تمثال على هيئة سبع رابض عليه ثلاثة اشرطة من كتابة نسخية نصها « العز والاقبال والسعادة والبقاء

والعز والاقبال» (٢٢) ٠

اما التماثيل المصنوعة من العاج فأبرز ما يمثلها نموذج فريد من نوعه يتصل بالتسلية واللهو ، وفي المكتبة الاهلية بباريس ، فيل من العاج للعبة الشطرنج ، وتذكر الروايات التاريخية ان هذه القطعة العاجية كانت من ضمن الهدايا التي قدمها الخليفة هارون الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا ٠٠ والقطعة المذكورة تمثل ملكا على ظهر فيل يحف به حرسه من الفرسان ، ونرى على خرطوم الفيل بهلوانا رأسه أسفل ويداه ممسكتان بنابي الفيل ومحيط المقعد الذي يجلس عليه الملك مزين بنقوش بارزة تمثل ثمانية محاربين من المشاة وعلى قاعدة هذا التمثال كتابة بالخط الكوفي نصها « من عمل يوسف الباهلي » (٢٣) ٠

و وأخيرا ، نرجو أن نكون قد نجحنا في القاء الاضواء على بعض جوانب من تراث امتنا العربية ٠٠ ونأمل ان تتاح لنا الفرصة في بحث لاحق نناقش فيه المجموعة الثانية من التماثيل التي أشرنا اليها في مقدمة لاحق نناقش فيه المجموعة الثانية من التماثيل التي أشرنا اليها في مقدمة هذا البحث ٠

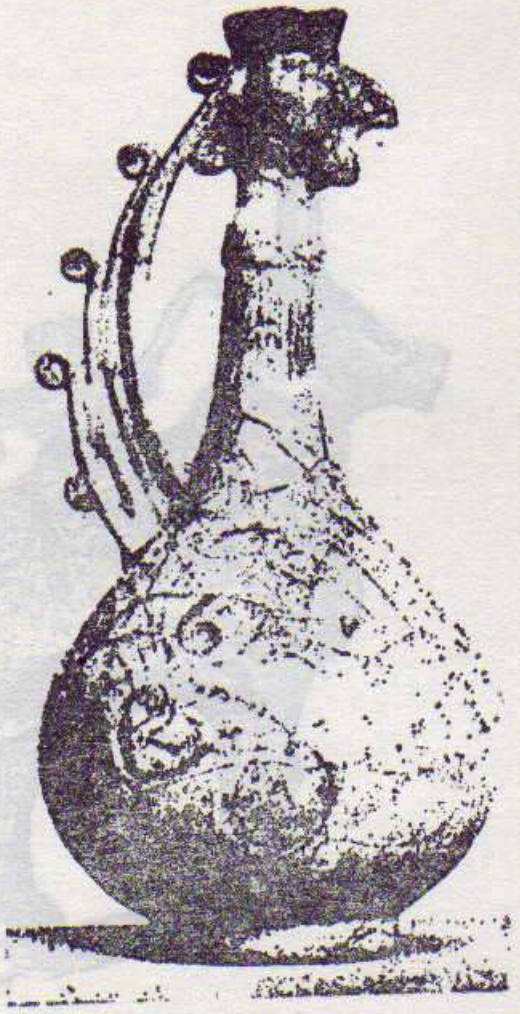

شکل (۱)

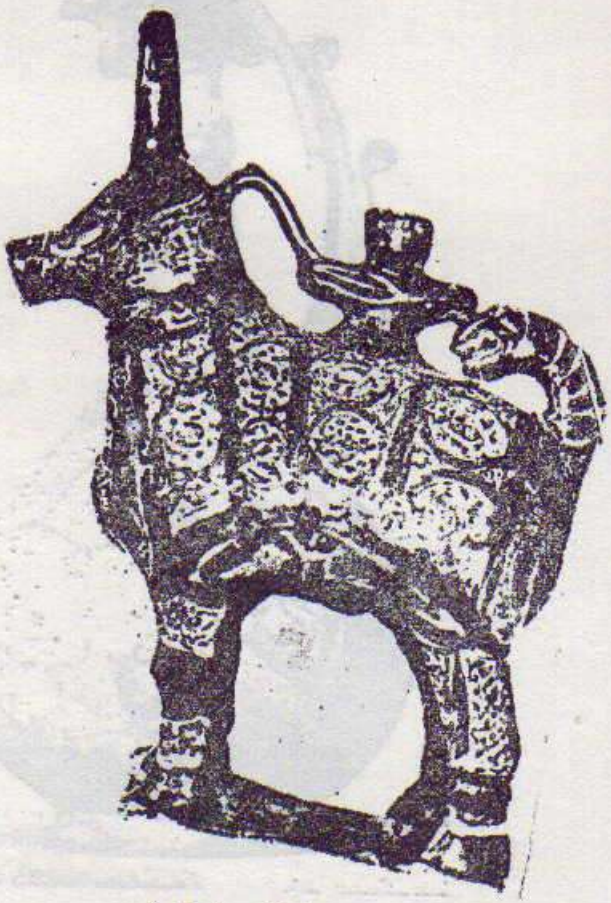

شکل (۲)

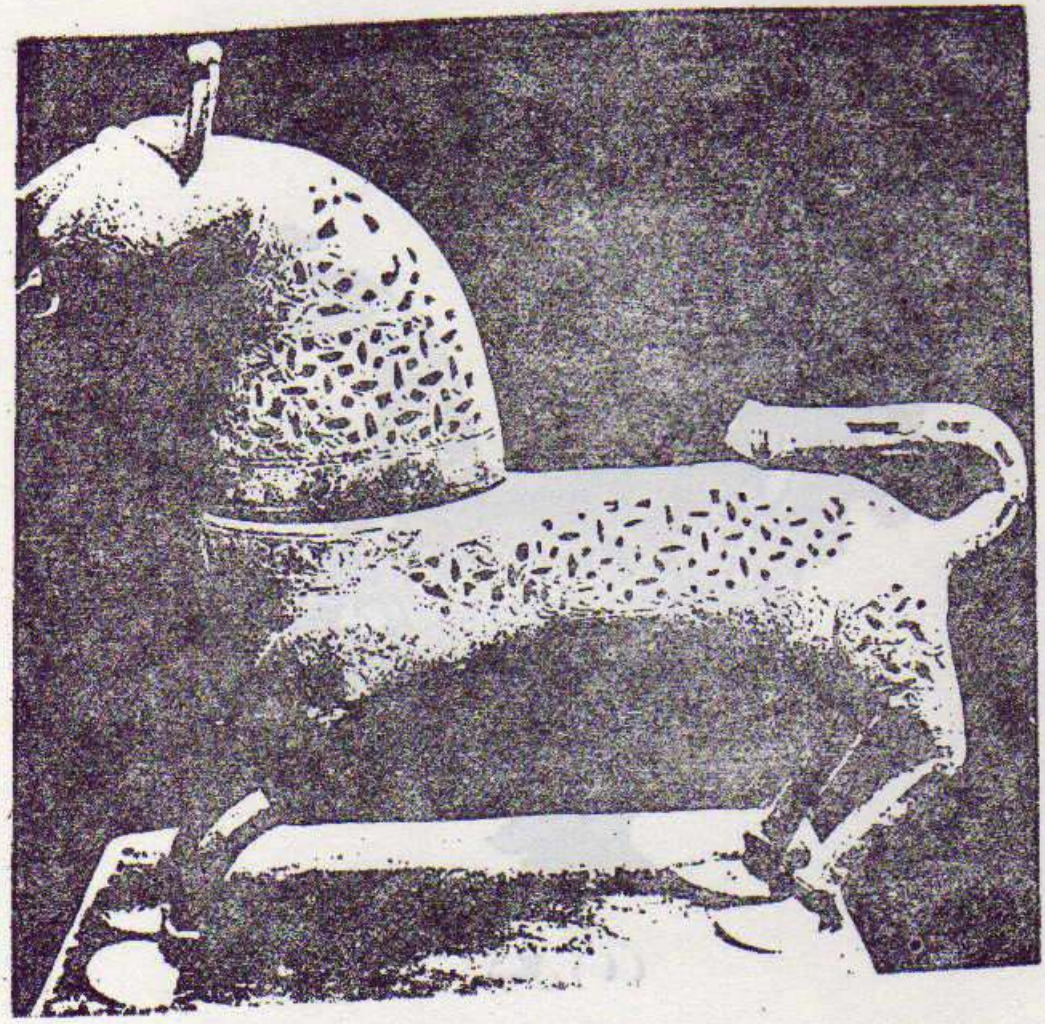

شکل (۳)

شکل (٤)

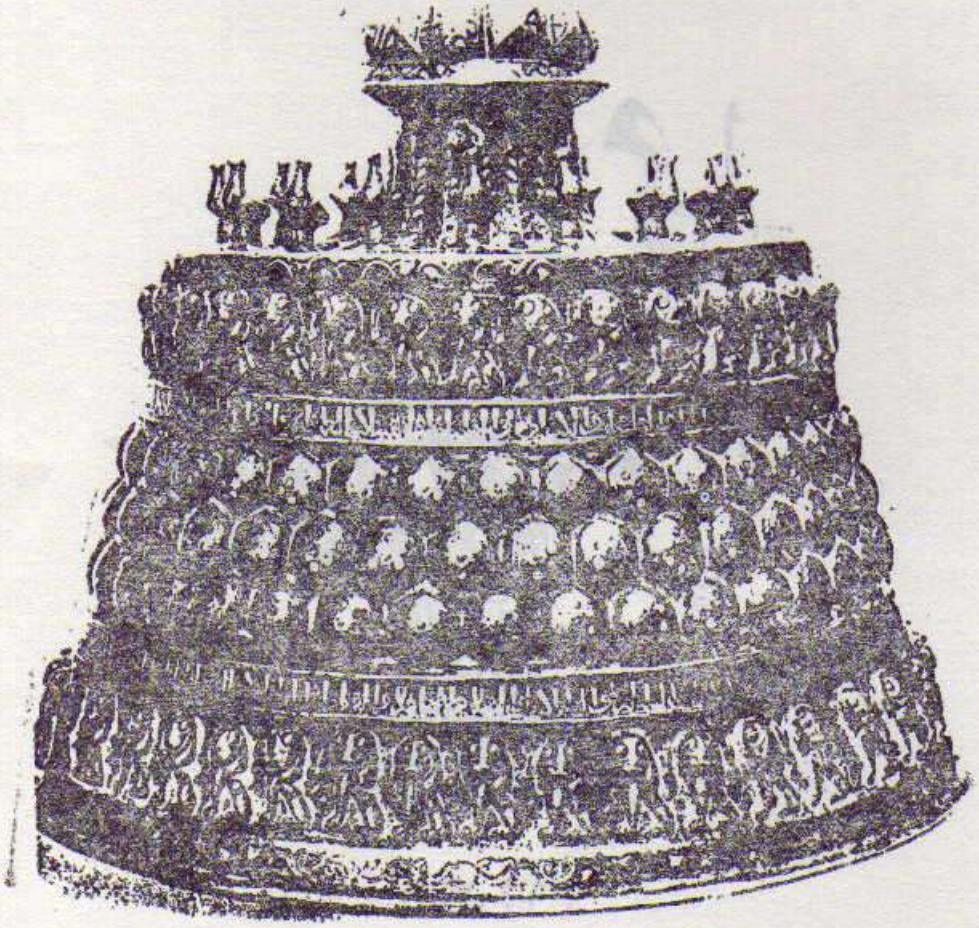

شکل (٥)

شکل (٦)

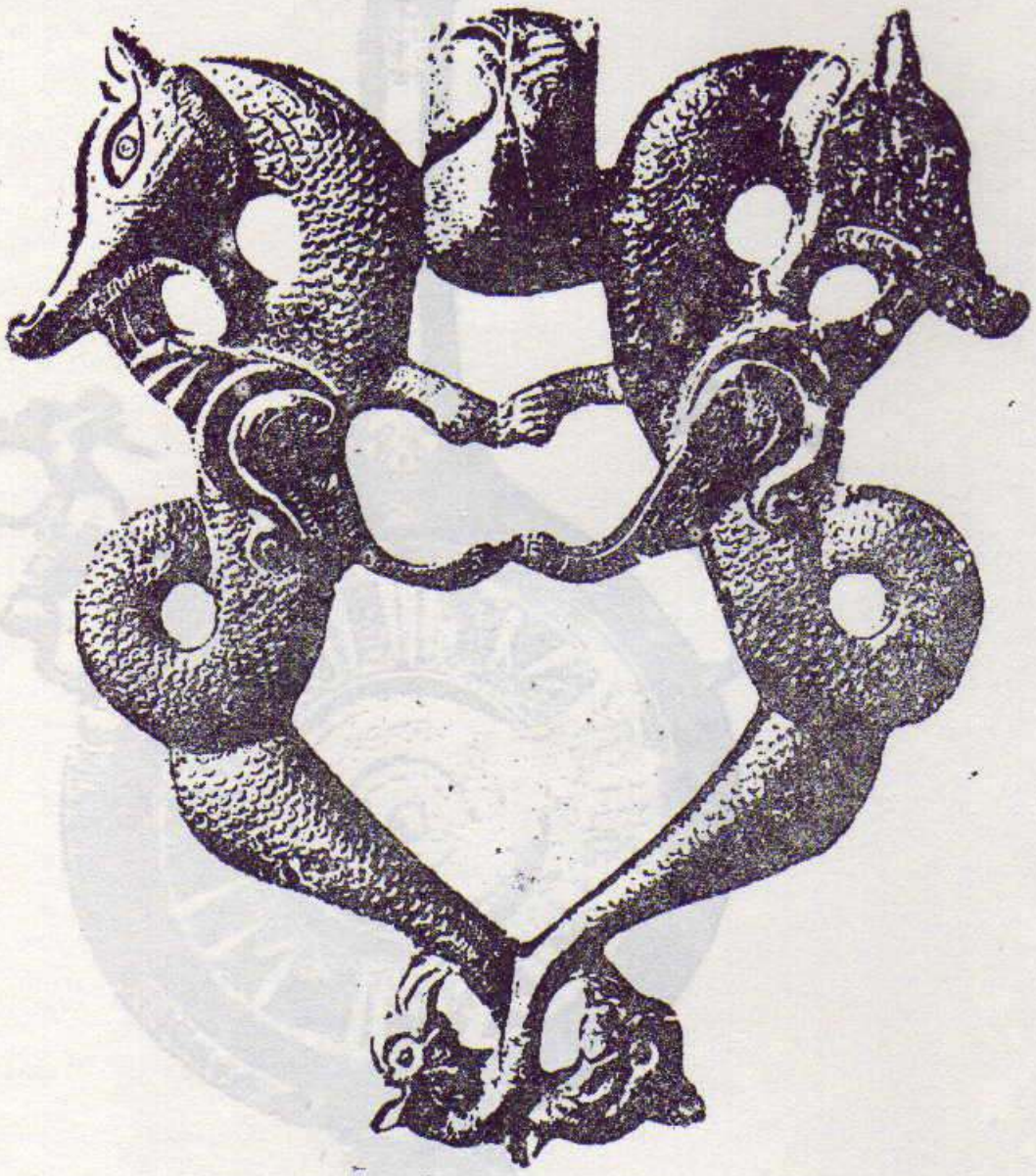

شکل (۷)

شکل (۸)

الهوامـــش :

١ ـ حسن، زكي محمد، أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية ، مطبوعات كليـــة الاداب والعلوم ببغـداد · مطبعـة جامعة القاهرة (١٩٥٦) شـكل ٧٣٤ ص٤٩٣ ·

٢ ـ حمدي، أحمـد ممدوح · معدات التجميل بمتحف الفـن الاسلامي · مطبعة دار (الكتب ١٩٥٩) القاهرة · ص٩٨ ·

٣ ـ المصدر السـابق ص٩٨ لوحـة ٤١ ·

٤ ـ الفن الاسلامي في مصر سنة ٩٦٩ ـ سنة ١٥١٧ · القاهرة · ابريل ١٩٦٩ ص٥٥ ·

٥ ـ المصدر السـابق ص٥٦ ·

٦ ـ حسن، زكي محمد، المصدر السابق ض٤١٦ شكل ١١١ ·

٧ ـ المصدر السـابق ص٤١٩ شـكل ١٤٤ ·

٨ ـ المتحف الوطني بدمشق ، دليل مختصر · الطبعة الاولى (١٩٦٩) ، مطبعة دار الحياة بدمشق ص٢٨٤ ·

٩ ـ المصدر السـابق ص٢٧٤ ·

١٠ المصدر السـابق ص٢٧٤ ·

١١ـ المصدر السـابق ، ص٢٨٤ ·

١٢ـ ديماند، م·س· الفنون الاسلامية· ترجمة أحمد محمد عيسى · دار المعـارف · الطبعـــة الاولى ١٩٥٤ · والطبعة الثانيـــة ١٩٥٨ ص ١٤٦ · شـــكل ٨٠ ·

١٣ـ العبيدي، صلاح، التحف المعدنية الموصلية فيالعصر العباسي· مطبعة المعارف· بغداد ١٣٨٩هـ ـ ١٩٧٠ ص١٩ ·

١٤ـ المصدر السـابق ص١٩ ·

١٥ـ حسن، زكي محمد، المصدر السابق ص٤٥٦ شكل ٤٥٨ ·

١٦ـ الفن الاسلامي في مصر ص٤١٤ ·

١٧ـ حسن، زكي محمد، المصدر السابق ص٤٦٢ شـكل ٥٠٦ ·

١٨ـ المصدر السابق ص٤٥٨ شـكل ٤٧٤ ·

١٩ـ المصدر السابق ص ٤٥٨ شـكل ٤٧١ ·

٢٠ـ المصدر السابق ص٤٦٠ شـكل ٤٩٢ ·

٢١ـ اتنجهاوزن، ريتشارد: أثر فنون الزخرفة والتصوير عنـد المسلمين على الفنون الاوربية· تراث الاسلام· القسم الثانى· عالم المعرفة · ترجمة د· حسين مؤنس (تشرين ثاني ١٩٧٨م) ص١١٤ ·

٢٢ـ حمدي، المصدر السـابق ص٥٠ ·

٢٣ـ حسن، زكي محمد، المصدر السابق ص٤٥٢ شكل ٤٢٢ ·